﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾ [الزّخرف: 63 - 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

إنعامُ الله على عيسى عليه السلام بكونه مَثَلًا على القدرة، وعلامةً على السّاعة، هو امتحانٌ للنّاسِ فيه

لمّا ذكر سبحانه في السّياق السّابق أنَّه أنعم على عيسى عليه السلام، وجعله مثلًا لبني إسرائيل، ولوَّح إلى اختلافهم، وأنَّ بعضهم نزَّل المَثَلَ به على غير مَنزِلِه، وحذَّر مَنِ اقتدى بهم في نحو ذلك الضَّلال، وأمَر باتِّباع الهادي، ونهى عن اتِّباع المُضِلِّ؛ صرَّح هنا أنَّه ما هو إلّا عبدٌ رسول، أنعم الله عليه بالوحي، فجاء بني إسرائيل بالبيِّنات والحكمة، بعد أن أبرزه الله لهم مَثَلًا على قدرة الله، الَّتي تخرِق نظام المادّيّات المعهودة، وذلك بحالِه العجيبة في ميلاده، ثمَّ ذكر حالهم هم معه من التَّحزُّب والاختلاف فيه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الطريق المستقيم واحد لا يتعدَّد، فهو موضوع الرِّسالات جميعًا وغايتها

أخبر سبحانه في هاتين الآيتين ما قاله عيسى عليه السلام لقومه، عندما بعثه الله إليهم، فقال لهم على سبيل النُّصح والإرشاد وأداء البلاغ: يا قوم لقد جئتكم بالمعجزات البيِّنات الواضحة الَّتي تشهد بصدق نبوَّتي، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات، وجئتكم بالعِلم والنُّبوَّة والإنجيل المشتمل على ما تقتضيه الحكمة الإلهيَّة من تشريعات وتكليفات وأدبيّات ومواعظ، وأنا قد جئتكم بالحكمة؛ لأعلِّمَكم ما ينبغي على الوجه الَّذي ينبغي، وجئتكم أيضًا؛ لأبيِّن لكم، ولأصحِّح لكم بعض الَّذي تختلفون فيه من أمر الدّين وتشريعاته، فبيَّنت لكم صوابَه وجوابه، فيزول عنكم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 462.

بذلك اللَّبس، فجاء ﷺ مكمِّلًا ومتمِّمًا لشريعة موسى ﷺ، ولأحكام التَّوراة، وأتى ببعض التَّسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به[1]، فإذا وصلكم ذلك، وتمَّ بلاغُه لكم؛ فاتَّقوا الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأطيعوني فيما آمركم به، وأنهاكم عنه؛ وذلك لِأنَّ الله هو ربّي وربُّكم، لا ربَّ لنا غيره، فأخلصوا له وحده العبادة، وهذا الَّذي آمركم به من التَّوحيد، وأنهاكم عنه من الشِّرك هو الطَّريق المستقيم الَّذي لا اعوجاج فيه، فتَصِلون بسببه إلى السَّعادة الدُّنيويَّة والأخرويَّة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ﴾ ممّا قبلها:

جملة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ﴾ عطْفٌ على قصَّة إرسال موسى في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ [الزخرف: 46][3]؛ لبيان حقيقة إنعامه ﷻ على عيسى ﷺ، وأنَّه مرسل من عند ربِّه، كما أنَّ موسى ﷺ كذلك، وقيل: هو كلام مستأنفٌ مسوق لبيان تعنُّت بني إسرائيل[4].

تـواتـرُ القصصِ يُناسِبُ استمرار العِنادِ والجحود

دلالةُ (لَمّا) الحينيَّة أو الرّابطة في مطلع الآية:

(لمّا) في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ظرف زمان، بمعنى: (حين)، فتفيد وجود شيء لوجود آخر، والثّاني منهما مترتِّب على الأوَّل، فهو بمنزلة الجواب المعلَّق وقوعه على وقوع شيء آخر[5]، و(لمّا) هذه تُسمّى: الحينيَّة، والظَّرفيَّة والوجوديَّة، والرّابطة، وهي أداة شرط (وجود لوجود)، وجود الجواب لوجود الشَّرط، وجواب (لمّا) يحتمل أنَّه محذوف؛ لدلالة بقيَّة الكلام عليه، وهو قوله:

بـلاغُ الـرَّسـول يـنـفـي حـجَّـةَ الـكافرِ في عدم إيمانه

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 768، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 95.
(2) طنطاوي، الوسيط: 13/ 95، ومركز تفسير، المختصر في التفسير، ص: 494.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 245.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 101.
(5) عباس حسن، النحو الوافي: 2/ 296.

﴿تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾، وقوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾، أي: (لمّا جاءهم عيسى اختلفوا)، وتكون جملة: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ مبيِّنة لجملة: ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، وليست جوابًا لشرط (لمّا) الَّذي جُعل التَّفريع في قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ دليلًا عليه[1]، ويحتمل أن تكون جملة: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ هي جواب (لمّا)، كما سيأتي.

موقعُ: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ ممّا قبلها:

على القول بحذف الجواب، يكون قوله: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: (لمّا جاءهم عيسى بالبينات؛ ماذا قال لهم؟)، فأجيب: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

الحكمةُ هي الميزان الَّذي أقامه الرُّسُل في النّاس

الحكمةُ جُنَّةٌ من الاختلاف والشِّقاق

ويصحُّ أن تكون جملة: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ جوابًا للشَّرط في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[2]، ويكون جواب الشَّرط: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾، مُفَرَّعًا عنه قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾، كأنَّه قال: (لمّا جاءهم عيسى بالبيِّنات؛ قال لهم: قد جئتكم بالحكمة الَّتي من شأنها أن تمنع وقوع الاختلاف، وجئتكم؛ لأبيِّن لكم ما وقع بينكم من الاختلاف بالفعل، ومع ذلك فاختلف الأحزاب من بينهم)، وهذا الوجه أظهر من تقدير جوابٍ محذوف يُستدلُّ عليه بما بعده، لا سيَّما وأنَّ هذا الوجه، وهو اعتبار ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ جوابًا قد اشتمل على معنى الجواب المقدَّر عند من يقول بحذفه؛ لأنَّ مجيئه بالحكمة يعني أنَّه جاء؛ ليحكم بينهم بما يمنع وقوع الاختلاف أصلًا، وانعطف عليه ما يفيد حسم الاختلاف الواقع بينهم بالفعل كذلك، في قوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾، وعليه يتجلّى التَّفريع بعده

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 246.

(2) صافي، الجدول: 13/ 102، والخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 25/ 229.

في قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾، كأنَّه قال: جاءهم بما يحسم الخلاف، ومع ذلك اختلفت أحزابهم.

معنى الباء في: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

عيسى عليه السلام هو نفسُه بيِّنةٌ وآية

الباء في قوله: ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ باء الملابسة، أي: جاءهم ملتبسًا بالبيّنات، ويتوجَّه معنى الملابسة على أنَّه عليه السلام كان بيِّنة في نفسه، بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، وأنَّ آيات الله البيِّنات كانت تلابسه، فقد أجراها على يديه، فأحيا به الموتى، وأبرأ به الأكمه والأبرص، وعلى اعتبار أنَّ البيِّنات هي الوحي بالإنجيل، فالباء للمصاحبة، أي: جاء ومعه البيِّنات.

نكتةُ التَّعبير باسم ﴿عِيسَىٰ﴾ من غير إضافته إلى مريم:

تأكيدُ عيسى بشخصيَّته النَّبويَّة، لا النَّسَبيَّة

لم يعبِّر النَّظم المبارك بلفظ: (عيسى بن مريم)، وجاء بالاسم دون وصف البنوَّة المضاف إلى (مريم)، وذلك أنَّه حين يكون السّياق عن أداء عيسى عليه السلام في رسالته وتبليغه المباشر، فإنَّ الغرض يتوجَّه إلى إبراز مقام النُّبوَّة مستقلًّا عن كونه ابن مريم، ففي هذا الموضع: الحديث عن البلاغ ومجيئه بالبيِّنات والحكمة، وليس عن نَسَبِه أو كونه آيةً بخِلْقَته، بل باعتباره نبيًّا مُبَلِّغًا، وأمّا إضافة (ابن مريم)؛ فتأتي غالبًا في سياق الدِّفاع عن طهارة ولادته، أو لبيان إعجاز خَلْقه، أو ابتداء اصطفائه من الله بإيتاء الكتاب لِقَداسَته في ولادته الَّتي اقتضت قَداسَته في النُّبوَّة، لا في الألوهيَّة؛ إذ هو مولود، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: 87]، ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ [الحديد: 27].

دلالةُ ﴿قَدۡ﴾ في: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم﴾:

لم يقل في السّياق الكريم: (قال جئتكم بالحكمة)، بل أدخل

﴿قَدْ﴾ التَّحقيقيَّة: ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾؛ لإفادة التَّحقيق والتَّوكيد[1]، أي: إنَّ مجيء عيسى لهم بالحكمة أمرٌ ثابتٌ ومؤكَّد، لا شكَّ فيه، فتركيب ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾ أفاد التَّحقُّق والثُّبوت من لفظ الفعل الماضي ﴿جِئْتُكُم﴾، ثمَّ ازداد هذا التَّحقُّق شِدَّةً وقوَّة بدخول ﴿قَدْ﴾ عليه، والفائدة من ذلك: توكيد مقول عيسى ﷺ لقومه، وكأنَّه يخبرهم بأنَّه جاءهم بما لا مجال للشَّكِّ فيه من الأدلَّة الواضحة والمعجزات البيِّنة، فقد جاءهم بالبيِّنات الموصوفة بأنَّها (حكمة)، كأنَّه يقول لهم: جئتكم بأعلى صنوف البيِّنات، وهي بيِّنات الحكمة الَّتي ينقشع بسلطانها كلُّ شكٍّ وريبة، كما تنقشع الظُّلمة بضوء الشَّمس، فلا يبقى معها من الظُّلمةِ شيءٌ ولا أثَر.

حجج الأنبياءِ ومُهِمَّتهم واضحة من البداية، وأقوامهم يجحدون برغم ذلك

دلالةُ اختصاص الرَّسول بالمجيء إليهم دون سواهم:

اقترانُ المجيء بكاف الخطاب الجمعيِّ في قوله: ﴿جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾، ولم يقل: (جئتُ بالحكمة)؛ للدَّلالة على خصوصيَّة رسالته ﷺ لبني إسرائيل، فالخطاب هنا موجَّهٌ إلى بني إسرائيل، وعيسى ﷺ كان نبيًّا مرسلًا إليهم خاصَّة، كما في قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: 49]، فذِكر ﴿جِئْتُكُم﴾ يدلُّ على أنَّ رسالته كانت محدَّدة لهذه الأمَّة دون غيرها، كما أنَّ جعْلَ المجيء متوجِّهًا إليهم فيه تخصيصٌ بتشريفهم والامتنان عليهم، وتكليفهم بالاتِّباع والطَّاعة، كأنَّه قيل: لقد جاءكم نبيٌّ مخصوصٌ بكم، وهذا يقتضي وجوب اتِّباعه وعدم الإعراض عنه، فتزداد مسؤوليَّتهم في تحقيق الإيمان به ومقابلته بالتَّوقير والإنصاف، لا بالإعراض عنه والتَّآمر عليه، فالتَّخصيص بـ ﴿جِئْتُكُم﴾ فيه تذكيرٌ بأنَّ الحجَّة قد قامت عليهم، فهم ليسوا معذورين في ردِّ دعوته.

مقابلةُ التَّشريف والتَّكليف بالعصيان والتَّكذيب والتَّحريف

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 309.

دلالةُ (الحِكْمَةِ) على النُّبوَّة والشَّريعة:

النُّبوَّة رأس الحكمة وأعلاها؛ لصدورها عن اصطفاءِ العَليّ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾، دلَّت (الحكمة) هنا على النُّبوَّة والشَّريعة[1]، أمّا النُّبوَّة؛ فترتبط في القرآن بالحكمة غالبًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: 48]؛ إذ جعل الحكمةَ ضمن المعطيات الَّتي تلقّاها عيسى عليه السلام بالوحي، كما جاء في قوله تعالى عن داوود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: 20]، أي: النُّبوَّة، وإطلاق الحكمة على النُّبوَّة؛ للدَّلالة على أنَّ النُّبوَّة واقعةٌ في مواقعها المُستحقَّة سواء في محلِّها القابِل لها، وهو النَّبيُّ الَّذي يوحَى إليه، فهو محكومٌ بمنهجها وحاكمٌ بها وحكيمٌ في فهمها والعمل بمقتضياتها، أو في غايتها، بإيصالها إلى مواقعها المقصودة في البلاغ والبيان، فهي واصلةٌ – أي: علوم النُّبوَّة – إلى الجهة المأمور إيصالها إليهم، وهم القوم المُبعوث فيهم النَّبيُّ، فهي واصلةٌ إليهم على جهة الإحكام الَّذي تنتفي معه الجهالة والإعذار.

عَمَلُ الرَّسولِ بالتَّشريع والبيان من مقتضيات الحكمة

وأمّا دلالة (الحكمة) على الشَّريعة؛ فالحكمة في سياق الرِّسالات تعني التَّشريعات الإلهيَّة الَّتي تحقِّق العدل والمصلحة، وتحسم الاختلاف، فهي عبارة عن وضع الأشياء في مواضعها بما يضبط حركة النّاس، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النّساء: 113]، يعني أنَّ الكتاب لمّا نزل؛ لا بدَّ من تنزيل مضامينه على منازلها الصَّحيحة في التَّطبيق والعمل، ولا يكون هذا إلّا بحركةٍ تشريعيَّة بيانيَّة تصدر عن الرَّسول، هذه الحركة التَّطبيقيَّة التَّشريعيَّة هي وظيفة الرَّسول، وهي حقيقة واسِطَته بين اللهِ سبحانه والخلْق، إذًا فالحكمة هي صلاحيةُ الرَّسول وعمَلُه بالتَّشريع والبيان، وهو لازمٌ من لوازم نبوَّته والوحي إليه، فعيسى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 246، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 95.

ﷺ جاء مكمِّلًا لشريعة موسى ومصحِّحًا للتَّحريفات، وهذا يظهر في قوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾، أي: إنَّ من وظيفته إعادة النّاس إلى الشَّريعة الصَّحيحة.

الحكمةُ علاجٌ يُعيد ضَبْط إيقاع الأرواح والأبدان

وهذا هو سِرُّ استعمال لفظ (الحكمة) هنا، بدلًا من (الشَّريعة) أو (الكتاب) أو (النُّبوَّة)؛ وذلك للإشارة إلى: أنَّ عيسى ﷺ لم يأتِ بشريعة مستقلَّة كالتَّوراة، بل جاء بحكمةٍ تهدي إلى التَّطبيق الصَّحيح لما أُنزِل من قَبْله، فهو يسلِّط الضَّوء بإيثار لفظ (الحكمة) على الجانب العمليِّ والتَّطبيقيِّ والوظيفيِّ لمنصب النُّبوَّة، وهو إنفاذ الحكمة وإعادة الأمور لنصابها ووضعها مواضعها.

معنى (ال) في: ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾:

النُّبوَّة هي لُبابُ الحكمةِ المعصومة

(الـ) في لفظ ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ في قوله: ﴿جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ عهديَّة ذهنيَّة؛ لأنَّ المراد بالحكمة - كما سبق - النُّبوَّة والشَّريعة[1]، ولو كانت (الـ) للجنس؛ لكان المعنى عامًّا يشمل أيَّ نوعٍ من الحكمة، سواء كانت إلهيَّة أم بشريَّة، لكن سياق الآية يدلُّ على أنَّ المقصود حكمة مخصوصة ومعصومة مرتبطة بالوحي والنُّبوَّة، لا بالتَّجربة الإنسانيَّة، أي: حكمة الله في التَّشريع والهداية، ممّا يجعل العهد الذِّهنيَّ أظهر وأولى.

نكتةُ إيثار العَطْف:

لتؤتي الحكمة ثمارَها؛ لا بدَّ من ترجمتها إلى سلوك وعمل

لم يقل: (جئتكم بالحكمة؛ لأبيِّن لكم) بدون عطف؛ لأنَّ العطف يعطي دلالاتٍ أوسع من تركه، ومن هذه الدَّلالات:

التَّفريق بين (الإتيان بالحكمة) و(التَّبيين) كأمرين مستقلَّين، فلو قيل: (جئتكم بالحكمة؛ لأبيِّن لكم)؛ لفُهِم أنَّ التَّبيين هو الغاية الوحيدة للحكمة، لكنَّ العطف يدلُّ على أنَّ (الإتيان بالحكمة)

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 246.

و(التَّبيين) وظيفتان متلازمتان، مع استقلالهما، أي: إنَّ عيسى جاء بالحكمة كأصلٍ عامٍّ، وجاء - أيضًا - لأجل التَّبيين على أنَّها وظيفةٌ خاصَّةٌ.

الحكمةُ أوسع من مجرَّد التَّبيين

الحكمةُ تشمل النُّبوَّة، والتَّشريع، والتَّوجيه الصَّحيح، والموعظة، والتَّزكية، وليس مجرَّد بيان الاختلافات، أمّا التَّبيين؛ فهو جزء من مهمّات الحكمة، لكنَّه ليس كلَّ الحكمةِ، فلو قيل: (جئتكم بالحكمة؛ لأبيِّن لكم)؛ لفُهِم أنَّ الحكمةَ بكاملها محصورةٌ في البيان فقط، وهذا ليس صحيحًا، وعليه فالعطف من إتباع الخاصِّ بالعامِّ؛ للتَّنبيه على أهمّيَّة الخاصِّ.

الحكمةُ هي القانون الَّذي يجري عليه البيان والبلاغ

تأكيدُ (التَّبيين) بوصفه غايةً إضافيَّة مركزيَّة، وليس مجرَّد نتيجة تابعة للحكمة، فالعطف يُبرز (التَّبيين) بوصفه وظيفة لها خصوصيَّتها، وليس مجرَّد أثرٍ تلقائيٍّ للحكمة، كأنَّه يقول: (جئتكم بالحكمة)، وهذا في ذاته رسالةٌ وغاية، وأيضًا: جئتكم؛ لأبيِّن لكم بعض ما تختلفون فيه، وتلك غايةٌ أخرى للمجيء إليك.

دلالةُ التَّبعيض في بيان عيسى عليه السلام:

البيانُ يطَّرد مع الحاجة وجودًا وعدمًا، فمن احتاج للبيانِ؛ بُيِّن له، وإلّا فلا

قال سبحانه: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، ولم يقل: (كلَّ الَّذي تختلفون فيه)؛ للإشعار بالرَّحمة بهم، وبالسَّتر عليهم؛ إذ بيَّن البعض، وترك البعض الآخر؛ لأنَّه لا ضرورة تدعو إلى بيانه[1]؛ لأنَّ النّاس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها[2]؛ ولأنَّ كلَّ ما يختلفون فيه، منه ما يرجع إلى أمور الدّين، ومنه ما يرجع إلى أمور الدُّنيا، فبيَّن لهم أمرَ الدّين والتَّشريع وما يتعلَّق بالتَّكليف دون الأمور الَّتي لم يُتعبَّدوا بمعرفتها ممّا يتعلَّق بأمر الدُّنيا، كعلوم الأفلاك والزِّراعة وسائر علوم المعاش، فإنَّ الأنبياء لم

(1) طنطاوي، الوسيط: 13/ 95.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 641.

يُبعثوا؛ لبيان ما اختُلف فيه من ذلك[1]، ولذلك قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[2].

ويصحُّ أن يُراد بالبعض أمورُ الدّين، ويكون المعنى: ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه، ممّا يُحتاج لبيانه، وما وُكِل إليكم الاجتهاد في بيانه، ولا أبيِّنه كلَّه؛ لأنَّكم ممتَحنون فيه إمّا بالاجتهاد فيه، وإمّا لِحينِ مجيء حكمٍ لاحق يزيل الاختلاف، أو مجيء رسول آخر يكمِّل البيان[3]، وإمّا بردِّه إلى المُحكم الَّذي بُيِّن لكم، فالبعض الَّذي بيَّنه عيسى ﷺ لهم، حينئذٍ يكون "كافيًا في ردِّ بقيَّة المتشابه إلى المحكَم بالقياس عليه، فإنَّ الشَّأن في كلِّ كتاب أن يجمع المحكم والمتشابه، فالمحكم ما لا لبس فيه، والمتشابه ما يكون مُلْبِسًا"[4]؛ ليتبيَّن الصّادق الَّذي يردُّ ما اختُلِفَ فيه إلى الواضحات المحكمات، أو يقول: (اللّه أعلم)، ولا يزيغ، مِنَ الكاذب الَّذي يفتتن، ويزيغ[5].

دلالةُ صيغة المضارع في: ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾:

عجلةُ الاختلاف في بني إسرائيل لا تتوقَّف

صيغة المضارع في قوله: ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ تدلُّ على أنَّه ﷺ جاء؛ ليعالِج اختلافًا قائمًا الآن فما يزال حاصلًا في واقعهم الحاضر[6]، ولو قيل: (اختلفتم) بالماضي؛ لاحتمل أنَّه ﷺ جاء ليعالج خلافاتٍ سابقة فقط، وأيضًا: صيغة ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ تدلُّ على أنَّ الاختلاف سِمة متجدِّدة ومستمرَّة في طبيعة بني إسرائيل، كأنَّه يقول لهم: هذا دأبكم المستمرُّ أنَّكم تختلفون، ولذا جئت؛ لأصحِّح بعض هذه الانحرافات.

موقع: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ممّا قبلها:

تقوى الله غايةُ ما جاءت به الرُّسل

جملة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تفريعٌ على ما قبلها، فالفاء تفريعيَّة أو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 95.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 170، وينظر: صحيح مسلم: رقم الحديث: (2363).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 247.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 463.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 463.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 463.

فصيحة[1]، أي: إذا كان قد تمَّ لكم نزول البيِّنات، وبلاغُ الحكمة، وتوضيح ما اختلفتم فيه، فذلك يستلزم منكم أن تعملوا بتقوى الله سبحانه وطاعة رسوله فيما أوحي إليه لأجلكم، ويجوز جعلُ الفاءِ استئنافيَّة، فيكون الكلام مستأنفًا من الله؛ للدَّلالة على طريق الطّاعة ومحجَّتها الواضحة[2].

دلالةُ العطف بالواو في: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ معطوفٌ على الأمر بالتَّقوى ﴿فَٱتَّقُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ التَّقوى والطّاعة أمران متلازمان ومتساويان في استقلالِ كلٍّ واحدٍ منهما في الالتزام به، فمطلوبٌ إيقاعهما والجَمْع بينهما؛ لأنَّ طاعةَ الرَّسول ليست مجرَّد نتيجة للتَّقوى، بل كلٌّ جزءٍ منهما أصلٌ في الدّين مطلوبٌ بذاته.

الـرَّسـول هو مِفتاحُ الوصول إلى تقوى الله سبحانه

دلالةُ الأمر بالطّاعة لنفْسِه في: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

لم يقل: (فاتَّقوا الله، وأطيعوا، أو وأطيعوه)، بل جعل الطّاعة لنفسه، فقال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم مُتَعَبَّدون بطاعة الرَّسول باعتباره مُبلِّغًا عن الله؛ إذ كيف لا تكون طاعته واجبة، وهو واسِطتهم إلى الله سبحانه؟ فلا يمكن بحال أن تصحَّ طاعةُ اللهِ مع معصية رسولِه، وفيه تنبيهٌ على الفصل بين المبدأ العام للتَّقوى، والمبدأ الخاص باتِّباع الشَّريعة الَّتي جاء بها عيسى عليه السلام، فالآية ذكرت أمرين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وهذا أمر عامٌّ يشمل كلَّ المؤمنين في كلِّ زمان ومكان، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، أي: أطيعوا ما جئتكم به من شريعةٍ خاصَّة، وفي الأمر بطاعته أيضًا - بعد أمْرِه لهم بتقوى الله - تعريضٌ منه ببني إسرائيل فيما تفشّى بينهم من التَّفريق بين الله ورسله، فيطيعون فيما يوافق أهواءهم، ويردّون ما

الـتَّـفـريـق بين الإيـمـان بالله والإيمان برسله كفر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 464، وصافي، الجدول: 13/ 102.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 101.

لا يعجبهم، فيدَّعون الإيمان بالله، ويُناهضون الرَّسول فيما يأتيهم به من عند الله[1].

موقع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ ممّا قبلها:

جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ استئناف بيانيٌّ لقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2]، فهي في موقع جواب لسؤال مقدَّر عن إجمالِ ما أمرهم به عيسى ﷺ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، كأنَّه قال قائل: فما إجمالُ غرضِه الَّذي يريد تقريرَه من هذين الأمرين؟ فأجيب بالغرض الجامع المفسِّر والمبيِّن لهما، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، فكأنَّه ﷺ فصَّل لهم ما يُراد منهم، ثمَّ بيَّن لهم الأصل الَّذي ينبني عليه ذلك، ويتغيّا به.

إقامةُ العبوديَّة لله وحده هي الغاية المطلقة

ويصحُّ أن تكون الجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ تعليليَّة لجملة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأنَّه إذا ثبت تفرُّده بالرُّبوبيَّة؛ توجَّه الأمر بعبادته؛ إذ لا يخاف اللَّهَ إلّا من اعترف بربوبيَّته وانفراده بها[3].

نكتةُ مجيء ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أفاد الحصر والتَّوكيد[4] بما يرفع الالتباس في الخطاب من كلِّ وجه، فحين يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي﴾، ولم يقل: (إنّ الله ربّي وربُّكم)، فقد أخرج الجملة من حيِّز الإخبار الاعتيادي، إلى الحيِّز التَّوكيدي الحاسم في تقرير المعنى وإثباته بما لا يقبل الجدال والشَّكَّ، وأفاد انحصار حقيقة الرُّبوبيَّة الشّاملة في الله سبحانه، بل وأفاد إضافة الرُّبوبيَّة إلى ضمير عيسى، وإلى ضميرهم ﴿هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بانحصارهم التّامِّ تحت سلطان ربوبيَّة الله سبحانه،

تقريرُ العقيدة الصَّحيحة للمنحرفين عنها يستلزم توكيد الخطاب لهم

(1) طنطاوي، الوسيط: 3/ 367.
(2) صافي، الجدول: 13/ 102.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 248.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 464، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 248.

فليس لهم ربٌّ سواه، وفائدة هذا الضَّمير في هذا المقام البلاغي - تبليغ عيسى البيِّنات - هو الرَّدُّ على الغلوِّ الَّذي أصابهم في مكانة عيسى ﷺ، فقد بالغوا فيه ﷺ، ورفعوه إلى مرتبة الألوهيَّة، فجاء الضَّمير؛ ليدفع هذا الوهم، ويؤكِّد أنَّ الرُّبوبيَّة منحصرة في الله وحده، وليس في أحدٍ غيره، لا في عيسى ولا في غيره.

دلالةُ تقديم ﴿رَبِّي﴾ على ﴿وَرَبُّكُمْ﴾:

أهـلُ الحـقِّ يُـقِـرّون الحقَّ عـلى أنفسهم أوَّلًا قبل إقراره على من سواهم

قدَّم ضميرَ عيسى على ضميرهم في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ ليؤكِّد أنَّه مربوبٌ لا ربٌّ، فهو عبْدٌ رسول لا يتجاوز هذا المقام، وعليه: فمراعاة مقتضى حال المخاطَبين هنا - وهو كونهم انحرفوا في مفهوم الألوهيَّة والرُّبوبيَّة، ووقعوا في الشِّرك أو الغلوِّ في عيسى ﷺ - اقتضى تعزيز الجانب التَّوكيدي للمعنى المقرَّر بتوظيف ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ واستعماله في الجملة.

علَّةُ تفريعِ الأمر بالعبوديَّة على تقرير الوحدانيَّة:

من عـرف اللـهَ حـقَّ معـرفتِهِ؛ فقد ألزم نفسه بعبوديَّته

جملة: ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ تفريعٌ على مضمون الخبر المؤكَّد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، أي: إذا تقرَّر انفراده سبحانه بربوبيَّته عليكم؛ فذلك يستوجب منكم أن تعبدوه؛ لأنَّ المنفرد بالألوهيَّة والرُّبوبيَّة حقيقٌ بأن يُعبَد[1].

موقعُ جملة: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ممّا قبلها:

إتـبـاعُ مـوضـوعِ الخطابِ بفصل الخطاب الَّـذي يُلخِّصُه ويُجمِلُه

جملة: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ تذييلٌ ختاميٌّ بعد الأمر بالتَّقوى والطَّاعة، والعبادة، وهو إمّا من تمام مقول عيسى ﷺ، أو من مقول الله سبحانه مُقرِّرًا ومُصادِقًا على مضمون كلام عيسى لهم[2].

مرجعُ الإشارةِ في: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾:

الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ تعود إلى الأمر العظيم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 248.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 95، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 53.

الَّذي هو مجموع ما دعاهم إليه ﷺ [1] وهو مجموع المضامين السّابقة في مقول عيسى ﷺ في قوله: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾، أي: مجموع ذلك المقول الَّذي هو عبارة عن الاعتقاد الحقِّ هو الصِّراط المستقيم.

لا استقامةَ في غير عبوديَّة الله واتِّباع رسله

ويصحُّ أن تعود الإشارة على مضمون قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾، أي: عبادتكم لله هي الصِّراط المستقيم، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: 5 - 6]، فالصِّراط المستقيم منوطٌ بأمر العبادة، فكذلك هنا هو منوط بالأمر بها في قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾، أو عائدة على مضمون قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2].

العبوديَّة الخالصة هي الصِّراط المستقيم الموصول بالله وحده

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 465.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 248.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"